قصة أصحاب السبت

كتبه

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين



دار الفتح الإسلامي
بمصطفى كامل



رقم الإيداع	٢٤٢٢٢ / ٢٠٠٦

دار الخلفاء الراشدين
ج.م.ع - الإسكندرية
ش منشية الزهراء - أبو سليمان - حي الرمل
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفي كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

الشركة الفنية للطباعة
ت: ٧٧٧١٠٣٩



مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً ﷺ عبدُه ورسولُه ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء : ١] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد :

فهذه القصة العظيمة التي وردت في عدة مواضع من القرآن ، وجعلها الله ﷻ موعظةً للمتقين كما قال ﷻ : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة : ٦٥ ، ٦٦] ، فكُلُّ من اتقى الله ﷻ وعلم هذه القصة فهو ينتفع بها ويتعظ ، ويعلم أهميتها في حياة المسلمين عموماً وخصوصاً .

هذه القصة وإن وقعت لأمة غير أمتنا ، وإن لم يكن زمنها هو زماننا ، إلا أننا نتعلم من قصص القرآن دائماً ، كما ذَكَر الله ﷻ أنه عبرة لأصحاب العقول ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف : ١١١] .

فلا بد أن نتعلم ونستفيد ، وأن نطبِّق هذا القَصص على واقعنا وعلى حياتنا ، وليس المقصود فقط أن نجعلها مجرد حكاية للتسلية ، فالله ﷻ ليس بينه وبين خلقه نَسَب ، بمعنى أن من فعل مثلما فعل الأولون استحق مثل جزائهم ، فمن اتقى الله ﷻ

نال جزاء المتقين السابقين ، ومن أعرض عن ذكر الله ﷻ وترك ما أمره الله ﷻ به أو كَفَر أو فَسَق أو ابتدَع أو عَصَى الله ﷻ نال جزاء السابقين له الفاعلين لذلك .

ولقد كان الصحابة ﷺ يستفيدون أعظم الاستفادة من قصص القرآن وخِطابه عن السابقين ، ولا يمنعهم أن نزول الآيات كان لأقوام غيرهم من أن يحذروا الشر الذي ذُمَّ لأجله هؤلاء الأقوام وأن يقتدوا بهم في الخير الذي مُدِحوا به .

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يتورَّع عن كثير من طَيِّبات المآكل والمَشارب ويتنزَّه عنها ، ويقول : (إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَقَرَّعَهُمْ : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ [الأحقاف : ٢٠]) ، مع أن الآية في الكفار كما ينصُّ على ذلك أولها ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ...** ﴾ ، ولكنَّ الفهم العميق للصحابة ﷺ دلَّهم على أن الذَّم للكفار كان على أعمالٍ وصفاتٍ ، مَنْ شاركهم في بعضها استحق بعض جزائهم وإن لم

يكن كافراً مثلهم .

وهذا حذيفة ﷺ يُسأل عن قول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، قالوا : (نَزَلَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ) ، فقال متهكمًا على من يريد تخصيصها بسبب نزولها : (نِعْمَ الإِخْوَةُ لَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ كُلُّ حُلْوَةٍ وَلَهُمْ كُلُّ مُرَّةٍ) ، مع أن سياق الآيات وسبب نزولها في شأن اليهوديَّين اللذَين زنيا ، وكذا قال الحَسَنُ - رحمه الله -: (نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الكِتَابِ وَهِيَ لَنَا وَاجِبَةٌ) ، وكذا قال النَّخَعِيُّ - رحمه الله - : (نَزَلَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ورَضِيَ لَكُمْ بِهَا) .

فهذه أسبابٌ عظيمة من أبواب الفهم في القرآن ، تميز به السلف ﷺ وحُرِمَها الكثيرون ، الذين قَصَروا أنفسهم على الانتفاع بما خوطبت به الأمة الإسلامية مدحاً أو ذماً ، أمراً أو نهياً ، فغاب عنهم خير عظيم لا يُقَدِّرونَه .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب - رحمه الله - في فوائده على كتاب التوحيد بعد قصة ذات أنواط معلِّقاً على قول رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ الله !! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا

إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ، **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** »[١] ، قال في فوائده : (إنَّ كلَّ ما ذَمَّ اللهُ بِهِ اليهودَ والنَّصارى في القرآنِ أنَّه لَنَا) ، أي نحن مُخاطَبون به ، ومَنْ فَعَله منّا كان مذموماً مثلهم .

ذلك أن كثيراً من الناس قد يظن أن ما ذكره الله عن الماضين ليس لنا ، ويقول : وما لنا ولهؤلاء ؟! وهذا باطل قطعاً ؛ فإن أسلوب الصحابة  في فهم القرآن وتطبيقه لم يكن أبداً كذلك ، فإنهم كانوا يرون أن ما خُوطِب به السابقون خطابٌ لهم كذلك ، ألم يتعلموا ذلك من رسول الله ﷺ حين قال له بعض الناس : (اِجْعَلْ لَنَا ذاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذاتُ أَنْوَاطٍ) ؟ فقال ﷺ : « **سُبْحَانَ الله !! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى** : ﴿ **اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ ، **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ** » .

فإذا علمنا أنَّ هذه الأمة فيها من يتَّبع سنن السابقين علمنا

---

١١) رواه أحمد (٥/٢١٨) ، والترمذي (٢١٨٠) ، وصحح إسناده الألباني في المشكاة (٥٤٠٨) .

أنه لابد أن نَحذر من كل مُنكَر قَصَّ الله علينا أن السابقين فعلوه ، وإذا علمنا أنه سيوجد مَسْخٌ في هذه الأمة – أمة الإسلام – علمنا مدى الخطر الذي يتهدد من لا يفهم القرآن الفهم السَّوِيَّ الصحيح ، قال رسول الله ﷺ : « **فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ** » ، فقال رجلٌ من المسلمين : (يَا رَسُولَ الله ، وَمَتَى ذاكَ ؟!) ، قَالَ : « **إِذا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ وَشُرِبَتْ الْخُمُورُ** »[1] .

ويزداد الأمر خطورةً في حق من يُخْشَى عليهم اتباع سنن بني إسرائيل ، وذلك يزداد في آخر الزمان ، وسوف يوجد في الأمة من يقلد اليهود والنصارى حَذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما قال رسول الله ﷺ : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ** » ، قُلْنَا : (يَا رَسُولَ اللهَّ ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟)

(١) رواه الترمذي (٢٢١٢) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٨٧) ، والقينات : أي المغنيات ، والمعازف : أي الآلات الموسيقية .

قَالَ : « فَمَنْ ؟! »[1] .

فالحذر من مشابهة ما فعلته هذه الفئة من عُصاة بني إسرائيل و غُواتهم واجبٌ ، و ها نحن نرى - كما سنُبَيِّنُ إن شاء الله - كيف انتشرت الحِيَل في الأمَّة الإسلامية مضاهاة لأهل الكتاب ، خصوصاً عند من يرى أن المسلمين لن يتقدموا إلا بمشابهتهم ومتابعتهم والعياذ بالله .

فمن هنا كان لابد أن نطبق ما نسمعه من قصص القرآن على واقعنا وحياتنا ، وأن نعلم طبيعة الأمة التي ستظل المواجهة بيننا وبينها قائمة إلى قُرب قيام الساعة ، فإذا علمنا حقيقة هؤلاء وعلمنا صفاتهم التي بَيَّنَها الله ﷻ في القرآن وفَضَحهم بها لم يَغُرَّنا غارٌّ أو مَغْرور ، ويَظنّ أنه يمكن أن تنطلي على المسلمين دَعاوَى المحبة والسلام والوئام والصداقة بين المسلمين وبين أعداء الإسلام من اليهود خصوصاً ، وممن شابههم من النصارى كذلك .

فالمسلمون يعلمون أن عداوتهم مع اليهود لا تنتهي إلا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) .

بقتالهم [1] ، كما أخبر النبي ﷺ فقال : « **لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ ، حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أَو الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ الله ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إلا الغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ** » [2] ، فالعداوة ليست من أجل أنهم سلبوا أرضنا فحسب ، أو قتلوا إخواننا فحسب ، أو سبوا نساءنا فحسب ، بل من أجل ذلك ومن أجل كفرهم بالله وبالرسول ﷺ .

والنبي ﷺ أخبر أن أكبر الفتن وأعظم أمرٍ ما بين آدم إلي قيام الساعة هو الدَّجَّال ، وهو منسوبٌ أيضا إلي اليهود ، فقد قال ﷺ : « **مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ** » [3] ، وثبت أن النبي ﷺ أخبر أن الدَّجَّال يهودي فقال

---

(١) فالعداوة ليست من أجل أنهم سلبوا أرضنا فحسب أو قتلوا إخواننا فحسب ، أو سبوا نساءنا فحسب ، بل من أجل ذلك ، ومن أجل كفرهم بالله ﷻ وبالرسول ﷺ .

(٢) رواه البخاري (٢٩٢٦) ، ومسلم (٢٩٢٢) واللفظ له .

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٦) .

ﷺ : « **يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفاً عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ** »[1] .

وهذا يَدلّ على أن الدَّجَّال هو مَلِك اليهود المنتظر الذي ينتظرونه لفرض سلطانهم على العالم كله فيما يظنُّون ، وأن هلاكهم يكون مع هلاكه أو بعده مباشرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً مُقْسِطاً فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ** »[2] ، وأنَّ عِيسَى ﷺ يَطْلُبُهُ - أي الدَّجَّال - حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلَهُ .

فالظاهر أن مَلحَمة قتل اليهود تكون بعد قتل الدَّجَّال مَلِكِهم على يد عيسى ﷺ ، وقد سبقت ملحمة قتال النصارى من الروم قبل ظهور الدَّجَّال بالشام ، و بعدها تُفتَح القسطنطينية فتحاً ثانياً ، كما أتت بذلك الأحاديث الصحيحة .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٤) ، والطيالسة جمع طَيْلَسان ، وهو الكِساء الغليظ المخطّط .

(٢) رواه البخاري (٢١٠٩) ، ومسلم (١٥٥) .

فإذا علمنا صفاتِ هؤلاء القوم حَذرنا على أنفسنا منها ، وعلمنا خطرهم وعلمنا حقيقتهم ، فلا يمكن أبداً أن نُصَدِّق في يوم من الأيام من يَدَّعي صداقتهم ، ومن يريد موالاتهم والدوران في فَلَكِهم ، ونعلم بذلك أن من أحبهم وودَّهم وسار في فَلَكِهم حَسَبَ مخططاتهم فإنه منافقٌ عدو للإسلام ، وإنْ صلَّى وصام وزعم أنه مسلم .

ذكر القصة في القرآن

هذه القصة ذكرها اللهُ ﷻ في مواضع ، إلا إنَّ أكثر المواضع تفصيلاً كان في سورة الأعراف ، وحول آياتها يكون موضوعنا إن شاء الله .

قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٣-١٦٧] .

يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن هذه القرية ، وهذا سؤال توبيخ في الحقيقة ، لأن أولئك الذين عاصروا النبي ﷺ شابهوا هؤلاء الذين جعلهم الله قردة خاسئين ، فلذلك أمره بالسؤال عن شيء يكتمونه مما جرى لأسلافهم وهم شابهوهم فيه وساروا على نهجهم .

لذا نجد أن خاتمة القصة ذكر الله ﷻ فيها أنه يبعث عليهم إلي يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، فمَنِ المقصودون بذلك بعد هلاك السابقين ؟ المقصودون هم من كانوا على شاكلتهم من بقية اليهود ، فهذا تأكيد على الارتباط بين الماضي والحاضر كما ذكرنا ، فهذه القصة توبيخ لبني إسرائيل في عهد النبي ﷺ لأنهم يفعلون مثل ما فعل أولئك من التحايل على أمر

الله وعدم الالتزام بشرعه ﷺ .

بداية القصة

قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ** ﴾ ، أي : على ساحل البحر .

ما اسم القرية ؟ وما اسم البحر ؟ ومن كان رئيسها ؟ كل هذا لم يذكره القرآن ، مع أن كثيراً من الناس يبحثون في ذلك أشد البحث ، وذلك لأنهم لم يفقهوا جيدا طريقة القرآن ؛ إذ لا فائدة من الأسماء كثيراً ولا فائدة من الأماكن كثيراً ، وكذلك لم يذكر في أي الأزمنة بالضبط ، إذ لا يعود علينا كبير فائدة من كل هذا ، وربما لا فائدة على الإطلاق .

فما العظة في أن نعرف : هل هذه القرية أَيْلةُ ، أم مَدْيَنُ ، أم غير ذلك ؟! ولذا لم يصح عن النبي ﷺ تحديد شيء من ذلك ، وإنما نُقِلَ ما نُقِلَ من ذلك عن أهل الكتاب ، المهم أنها كانت قرية على ساحل بحر ، وكان عملهم صيد السمك .

والاختصار في الكلام القرآني بليغ غاية البلاغة ، فقد

أوضح كل الأمور من غير إخلال على الإطلاق بأيٍّ من المعاني المطلوبة .

قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ **إِذ يَعْدُونَ** ﴾ أي : حين يعدون ، و المعنى : واسألهم عن القرية حين عَدَت في السبت ، ما كان شأنها ؟

ذلك أن الله ﷻ حرَّم على اليهود العمل في يوم السبت ، وقد كان هذا نوعًا من الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، والتي جعلها الله بسبب اختلافهم ، فإن اليوم الذي أمروا بتعظيمه أصلاً هو يوم الجمعة ، لأنه أعظم الأيام عند الله ﷻ فاختلفوا على نبيهم ، ولم يطيعوه في أول الأمر عندما بَلَّغَهم إياه ، فصرفهم الله عنه وجعلهم يعظمون يوم السبت حرماناً لهم من يوم الجمعة .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٤] ، وأخبر النبي ﷺ فقال : « **نحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَنحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، بَيْدَ أَنهُمْ أُوتوا الكِتَابَ**

مِنْ قَبْلِنَا وَأوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا ، فَهَدَانا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقّ ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانا اللهُ لَهُ - يَوْمُ الجُمُعَةِ - فَاليَوْمُ لَنَا وَغَداً لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى »[1] ، يقصد ﷺ أن يوم الجمعة كان اليوم المعظَّم ولكنهم صُرِفوا عنه ، وجعل الله ﷻ عليهم من الأغلال والآصار تحريم العمل يوم السبت ، فلا يجوز أن يعملوا يوم السبت ، ولابد أن يتفرغوا للعبادة ، ولأنهم قوم لم يحافظوا على العبادات اليومية ، فأُمِروا أن يتفرغوا تفرغاً تاماً بترك العمل يوم العبادة الأسبوعي .

والمسلمون أُمِروا بأيسر من ذلك ، وهو وقت أداء صلاة الجمعة ، قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] ، فأمرهم الله أن يتركوا أشغالهم بمجرد سماع الأذان الذي يبدأ الخطيب بعده في الخطبة ، ويذهبوا للصلاة في المسجد ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ ، وأمرهم بعد أن ينصرفوا من الصلاة بأن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من

---

(١) رواه البخاري (٨٣٦) ، ومسلم (٨٥٥) .

فضل الله ، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وذلك أن أمة الإسلام - بحمد الله تبارك وتعالى - أهل الالتزام منهم يحافظون على عباداتهم اليومية ويؤدون الصلوات الخمس ، فلم يحتاجوا إلى ما احتاج إليه بنو إسرائيل من تفرُّغ كامل طوال اليوم عن العمل للعبادة في ذلك اليوم ، وإنما لأجل محافظتهم على العبادة اليومية أُكرِموا ولم يحرَّم عليهم العمل يوم الجمعة ، وإنما أُمِروا ساعة الصلاة فقط بترك العمل للانصراف للصلاة .

وقد اخترع اليهود قصة قبيحة من باطلهم لتعليل تحريم العمل يوم السبت وهي أن الله تعالى بعد أن خلق العالم ابتداءً من يوم الأحد انتهى يوم الجمعة واستراح في اليوم السابع لأنه تَعِبَ ، فوجب على العباد أن يستريحوا أيضا ويتركوا العمل ويتفرغوا للعبادة !!

وهذا من عظيم جهلهم و عظيم ظلمهم ، فَرَدَّ الله عليهم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَامٍ وَمَا

مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] ، واللُّغُوب هو الإعياء الشديد .

فاخترعوا هذا الباطل - وهم دائماً يحرِّفون ويخترعون - وهم طيلة أيام الأسبوع مشغولون بالكسب والمعاش ، فَلَهُم الويل مما يصفون ويخترعون .

الحلال كثير والحرام قليل

كان عمل هذه القرية صيد السمك ، وبدأ اعتداؤهم بصيد السمك يوم السبت بشيء عجيب !!

قال ﷻ : ﴿ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** ﴾ ، ففي يوم السبت المحرَّم عليهم العمل فيه يجدون البحر مليئاً بالأسماك ، والحيتان هنا معناها السمك ، وهي كذلك في كلام العرب ، فكل سمكة تسمى حوتًا ، فكانت الأسماك تأتيهم يوم السبت في البحر شارعَة زعانفها وخراطيمها في المياه تظهر نفسها ، والأسماك - قطعًا - لا تدرك أيام الأسبوع ، ولكن قدَّر الله هذا الأمر العجيب ﴿ **وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** ﴾ أي : باقي أيام الأسبوع لا تأتيهم ، لا يكون في

البحر سمكة واحدة ، فسبحان الله !!

نلحظ هنا أصلاً هاماً من أصول التشريع ، فباستقراء ما شرعه الله لعباده نجد أن الحرام في الأصل هو القليل ، وأن الحلال في الأصل هو الكثير ، فالمحرَّم يومٌ واحد والمباح ستة أيام .

وكذلك الأمر بالنسبة لنا نحن المسلمين ، فإن الله ﷻ إنما أمرنا أن نترك العمل في وقت وجيز فقط ، وانظر في سائر ما حرَّم الله على عباده تجد هذا الأمر أيضا ، تجد الحرام قِلَّة والحلال كثرة .

قال ﷻ : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة: ٢٩] ، فكل ما في الأرض حلال ، كما قال ﷻ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ [البقرة: ١٦٨] .

فماذا استثنى الله ﷻ ؟؟ استثنى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، كما قال ﷻ : ﴿ **قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ**

خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ، فجميع بهائم الأنعام حلال إلا أن الخنزير محرم مثلاً ، وكذلك ما حرمه النبي ﷺ ، كالحمار الأهليّ ، وكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير [1] .

ونجد المحرمات من النساء صنفاً معدوداً من الأقارب ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ**

---

(١) فعَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ، **أَلا لا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السَّبَاعِ** ... » [رواه أبو داود (٤٦٠٤) ، وأحمد (١٦٧٢٢) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧١)] .

غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾[النساء : ٢٣ - ٢٤] .

وبالنسبة للمعاملات ، فالشركة والمضاربة [١] والبيع والشراء والإجارة والمزارعة [٢] والمساقاة [٣] وأنواع المعاملات كلها مباحة ، وإنما حرم اللهُ الربا والميسر ، فتجد أن كل أنواع الأنشطة الإنسانية الأصل فيها الحِلّ إلا ما حرَّمه الله ، فالأصل في التشريع أن الحلال أكثر من الحرام ، وأن الحرام ليس إلا دائرة ضيقة ، ومع ذلك نجد في واقع حياة الناس أن الحرام ينتشر جداً ، حتى يكاد يغلب الحلال ، ولا يكاد الإنسان يجد الحلال إلا بشِقّ الأنفس .

وهذا هو الذي وقع لبني إسرائيل ، فالذي حدث لهم أن الحرام الذي هو ضيّق أصلاً قد اتسع جداً ، اتسع بمعنى أنهم وجدوا السمك يوم السبت فقط ، والحلال الذي هو واسع في

(١) المضاربة : دفع مال معلوم لمن يتجر به ببعض ربحه .
(٢) المزارعة : دفع أرض لمن يزرعها بجزء معلوم مما يخرج منها .
(٣) المساقاة : دفع شجر لمن يسقيه ويعمل عليه ، بجزء معلوم من ثمره .

ستة أيام يباح فيها الصيد ، قد ضاق حتى لا تظهر سمكة على الإطلاق .

وشبيه بذلك ما يقع الناس فيه اليوم ، فمع أن أنواع المعاملات المباحة كثيرة جداً ، والربا والميسر المحرم نوعان فقط ، تجد الربا ملأ السهل والوادي وملأ كل مكان ، فلا تكاد توجد معاملة إلا وفيها شبهة الربا ، أو رباً صريح ، أو ميسر .

تجد الحرام هو الذي يتسع والحلال يضيق ، حتى في بعض الأماكن وفي بعض الأزمنة يكاد الحرام يملأ البلد كلها ، ولا يكاد يوجد رزق حلال صافٍ ، فلماذا يُضَيِّقُ الله على الناس ما أحلَّ لهم ويوسع عليهم ما حرَّم عليهم ؟!

يذكر الله ﷻ الحكمة في ذلك ويبينها فيقول :

﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

فهذا اختبار من الله ﷻ ، فالفسق : هو الخروج عن طاعة الله ﷻ ، وهو الذي يؤدي إلى ضيق الحلال علينا ، واتساع الحرام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فالإنسان لا بد أن يفهم أن هناك علاقة وطيدة بين الطاعة و

المعصية من جانب ، وبين الرزق والكسب من جانب أخر .

فالرزق إذا كان واسعاً وفتنةً للإنسان ومِن حرام ، فهذا علامة على أن الله أراد بصاحبه الهلاك والعياذ بالله ، قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤ - ٤٥] .

فمن وسَّع الله ﷻ عليه في رزق محرَّم وسهَّل له طريق الحرام ، فهو يمتحنه حتى ينظر ما يفعل ، فإن استمر على الحرام الذي يكتسبه ، زاده الله سعة ثم أهلكه ﷻ ، قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

بل المؤمن ينظر إلى ما هو أعمق من ذلك ، فهو يرى أن هناك ارتباطاً بين طبيعة العمل وكثرة الشغل وبين الرزق الذي يصيبه الإنسان ، فكما قال النبي ﷺ : « قَالَ اللهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ ، تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي أَمْلأ قَلْبَكَ غِنَىً وَأَمْلأ يَدَيْكَ رِزْقَاً ، يَا ابْنَ آدَمَ لا

تَبَاعَدْ مِنِّي أَمْلأْ قَلْبَكَ فَقْراً وَأَمْلأْ يَدَيْكَ شُغلاً »[1] .

فالعبد المؤمن ينظر إلى العلاقة بين الرزق وبين العمل الذي يعمله ، فالعمل الصالح ييسر للإنسان رزقاً حلالاً طيباً من غير أن يشغل حياته ووقته ، بل يجد بعد ذلك وقتاً متسعاً كي يعبد الله ﷻ ويتعلم العلم ويقرأ القرآن ، ويجد أنواع الطاعات المختلفة ، قال ﷻ : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

أما الذي يتعلل بأنه لا يفعل شيئاً من ذلك لأنه مشغول ، وإذا سألته لماذا لا يقرأ القرآن ؟! لماذا لا يحفظ القرآن ؟! لماذا لا يتعلم العلم الشرعي ؟! لماذا لا يدعو إلى الله ﷻ ؟! لماذا لا يصاحب أهل الخير والتقوى والصلاح ؟! يقول : (مشغول ... ، ليس عندي وقت ، ظروف العمل ... ، والمصاريف ... ، والحياة ...) !!

(١) رواه الطبراني في الكبير (٥٠٠) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٦٥) .

فلو كان هذا الرزق حلالاً كله لكان من علامات بعده من الله أن يكون مشغولاً عن ربه ﷻ وعن طاعته ﷻ ، وخصوصا إذا كان الرزق لا يشعره بالكفاية ، فمع أنه مشغول على الدوام ليلاً و نهاراً و مع ذلك لا يجد ذلك الدَّخل يكفيه بل يريد أكثر ، كما قال النبي ﷺ : « **لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِياً مِنْ ذهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلا التراب ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ** »[1] .

فهذا حال الغِنَى المُطْغِي الذي لا يَشْبَع صاحبه أبداً من الدنيا ، ينال منها ويظل يريد المزيد ، وكذلك الفَقْرُ المُنْسِي على الطرف الآخر ، المملوءة يدا صاحبه بالشغل ولا يجد الكفاية لتباعده عن الله ﷻ ، ولو أنه اقترب بإرادته وهَمِهِ من الله ﷻ ليسَّر الله له ما يكفيه دون أن ينشغل الشغل الكثير .

قال ﷻ : « **يَا ابْنَ آدَمَ ، تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي** » ، فهل يعني ذلك أن نجلس في المسجد ونترك أعمالنا وأشغالنا ؟! ليس – قطعاً – هذا هو المقصود ، إنما التفرغ معناه أن يكون الهَمُّ هَمّاً واحداً ،

(١) رواه البخاري (٦٠٧٥) ، ومسلم (١٠٤٩) .

فـ « تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي » معناها : (اجعل همَّك طاعةَ الله وعبوديته) ، العبادة بمفهومها الشامل الذي يشمل العبادات الظاهرة والباطنة وكل مظاهر حياة الإنسان ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

فالصلاة والنُّسُك - الذّبح - والحياة والموت كل ذلك لله ﷻ ، فلابد أن نسير في كل أمورنا وفق شرع الله ﷻ وعلى سبيله وعلى صراطه المستقيم ، فمعنى : « تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي » أن يكون هَمُّ الإنسان مَرْضَاةَ الله ﷻ وطاعته ، فيمكن أن يكون في زواجه في عبادة ، وفي عمله في عبادة ، وفي سيره في عبادة ، وذلك لأن نيته وإرادته انصرفت إلى تحقيق مرضاة الله ﷻ .

وليس المقصود أن يترك أعمال الدنيا والتكسب و الرزق ويجلس في المسجد ويقول : (أتفرغ للعبادة) ، ليس هذا هو المقصود ، ولكن « تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي » بمعنى : اجعل الهَمَّ هَمّاً واحداً واصدُقْ في أنك تريد مرضاة الله ، فإذا تعارض شيء من الدنيا ومرضاة الله قدَّمْتَ مرضاة الله ﷻ قطعًا ، ولم تُقَدِّمْ شيئًا من

الدنيا على طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ ، فلا يُتَصَوَّر مسلم يقول : إنه يترك الصلاة في وقتها أو في الجماعة من أجل أنه مشغول بعمل ويقول : (العمل عبادة) ، فهذا نقص بلا شك ، وهذا ليس بالمسلم الكامل الذي يؤدى حق الله ﷻ .

فالذي يفرِّط في واجبات الشرع - من أجل أنه مشغول بالدنيا - بعيدٌ عن الله .

وأشد الناس بُعْداً المشغول بشغل مُحَرَّم وعمل مُحَرَّم ، يأكل الربا ، أو يغش الناس ، أو يتعامل بالميسر والقِمار ، ويتكسب المكاسب المحرمة أو يعمل أي عمل يعين فيه على معصية الله ﷻ فهذا في خطر عظيم ، وهذا من أبعد الناس عن الله ﷻ .

● **نعود إلى قصَّتنا فنقول :**

كان هذا الابتلاء من الله ﷻ لهذه القرية لعلهم يتوبون ، كان لابد لهم أن يفكروا : لماذا ضاق الرزق ؟! ولماذا وجدنا الفقر ؟! لابد أن هناك سبباً ، كان لابد أن ينظروا هذه النظرة ويفكروا هذا التفكير ، وهو أن الفسق هو السبب ، كما قال ﷻ :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ

كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وليس المطلوب أن يكون الإنسان ذا مال كثير ، فحاجة الإنسان تحصل بالكفاية ، أي أن يجد ما يكفيه كما دعا النبي ﷺ : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً** » [1] .

والقُوتُ : أي ما يَسدُّ الرَّمَقَ ، وهو الذي يكفي دون أن يحتاج الإنسان لأحد ، فهذا هو المطلوب ، وهذا مع طاعة الله هو أمثل الأحوال وهو أفضل ما يكون ، مع أن النفس الإنسانية بطبيعتها الجاهلة الظالمة تريد الزيادة على الكفاية ، وتريد أكثر وأكثر ، ولكن النبي ﷺ بين أن أفضل الرزق هو ما اختاره لنفسه ﷺ ولأهله وهو القوت الذي لا يكون أنقص مما تحتاج فيضرك ذلك بأن تضطر إلى سؤال الناس ، ولا زائداً عن الحاجة فيشغلك .

فلذلك نقول إن الرزق عندما يضيق على الإنسان إلى درجة الفقر المُنْسِي ، أو يتسع إلى الغنى المُطْغِي فلابد أن ينظر إلى أنه مقصر في طاعة الله .

(١) رواه البخاري (٦٠٩٥) ، ومسلم (١٠٥٥) .

فالفسق والمعاصي هي التي تجلب المصائب والبلاء ، كما قال ﷻ لخير الناس بعد الأنبياء : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فكل ما يصيبنا من مصائب فبما كسبت أيدينا ، فإذا وجدنا الأمر قد ضاق ، فلابد أن ننظر في أفعالنا فنتوب إلى الله ﷻ ليتسع مرة أخرى .

كان علاج هذه القرية أن يتوبوا إلى الله ﷻ من المعاصي والفسق الذي ارتكبوه ، فيعود الأمر كما كان ويتسع الحلال ويضيق الحرام ، وتأتي الأسماك كما تأتي لكل الناس في كل أيام الأسبوع .

ولكن كيف كان تصرُّف بني إسرائيل ؟! لم يفهموا معنى الامتحان والابتلاء ، فالله ﷻ ضيَّق عليهم ليرجعوا إلى الهدى فلم يستجيبوا ، إنما شرعوا يتحايلون على شرع الله ، وكأنهم لم يعلموا أن السمك إنما يتحرك بأمر مِن الله ﷻ ، بل غفلوا عن ذلك ، فكأن السمك يعرف الأيام فيحتال عليهم ، فقالوا : نحن

نحتال عليه .

فبدأ أحدهم ينصب شَبَكَه يوم الجمعة - أي قبل أن يجئ يوم السبت الذي حُرِّم عليهم العمل فيه - فيقع السمك في الشبك يوم السبت ، ويأخذه هو يوم الأحد .

فوجد بعض الناس رائحة السمك يشوى فيما يذكرون ، فتتبعوا الرائحة حتى وجدوها في بيت واحد منهم ، فجعلوا يسألون كيف أتى بالسمك ؟! وهم يشتاقون إليه جداً ، فقد مرت عليهم أيام أو أسابيع وربما شهور وهم يشتاقون للسمك ، فأخبرهم بما صنع .

فأخذوا يتدافعون على فعْل مثل ما فعل ويقولون : (لم نَصْطَدْ يوم السبت ، لم نعمل يوم السبت) ، وكذبوا ، وإلا فمتى حصل الصيد في الحقيقة ؟! يوم السبت !! ولكنه التحايل على شرع الله ﷻ .

التحايل على شرع الله

والتحايل على شرع الله صفة من صفات اليهود ، ولكنها

وُرِّثَتْ فيمن أشبههم ممن ينتسب إلى الإسلام ، وكما روي عن النبي ﷺ أنه حذر من ذلك فقال : « **لا تشَبَّهُوا بِاليَهُودِ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ الله بَأَدْنى الحِيَلِ** »[1] ، فاستحلال محارم الله بأدنى الحيل ، والتحايل على شرع الله سِمَةٌ يهودية .

وهناك من يتحايل على شرع الله من المسلمين :

كمن يسمي الربا بغير اسمه ليُضل الناس ، كالاستثمار ، وشهادات الادخار مثلاً ، أو يسميه بالفائدة ، أو عائدًا أو نحو ذلك ، وهو في الحقيقة ربا محرم أمرنا الله ﷻ بتركه ، قال ﷻ : ﴿ **يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَّ وَذرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تفْعَلُوا فَأذنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩] .

ومن يتعامل مع الناس بالإقراض والزيادة عليه أو بالإقراض ويشترط فيه شروط معينة كبيع أو إجارة أو عقد آخر

(١) رواه ابن أبي بطة ، وضعفه الألباني في غاية المرام (١١) ، ومعنى الحديث مستقيم وتشهد له قصة أصحاب السبت .

كما يصنع كثير من الناس .

كأن يقرضهم قرضًا للصرف على ما يحتاجون من أرض وغيرها بشرط أن يبيعوا له إنتاج أرضهم ، وهذا للأسف كثير .

أو مِثل كثير من الناس الذين يتعاملون بأنواع من القروض بفائدة من البنوك أو صناديق الاستثمار أو رجال الأعمال وغيرها ، وكل ذلك من الربا المُحَرَّم ، وإن سُمِّي بغير اسمه .

حتى ولو تَبَرَّعَ بفتوى باطلة بعضُ من ينتسب إلى أهل العلم ، وهو ليس منهم وإن كان عند الناس يشار إليه بالبنان ، فإن من أحَلَّ ما أجمع العلماء على تحريمه - وإن كان متأوِّلاً ويزعم أنه مجتهد - فهو مُبْطِل ، لأن الاجتهاد لا يكون في مواجهة الإجماع ، قال ﷻ : ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء : ١١٥] .

وهناك أنواع من الحيل في البيوع ، مثل بيع العِينَة ، وهو نوع من الربا لكن بتحايل على الربا ، وذلك أن يريد شخص أن يقترض من شخص آخر مائة جنيه مثلاً ، والرجل الآخر لن

يقرضه مائة إلا بمائة وعشرين ، فيقول المقرِض للمقترض : (اشْترِ مني هذه السلعة بمائة وعشرين بالتقسيط ، وأنا أشتريها منك بمائة الآن) ، فترجع له سلعته ، ويصبح المقترض مديناً بمائة وعشرين ، مع أنه قبض مائة فقط ، فصارت المائة بمائة وعشرين ، ودخلت بينهما السلعة .

وقريب جداً من هذا مسألة التوَرُّق ، وصورته أن رجلاً لا يجد من يُقرضه فيشتري سلعة من السوق بالتقسيط بسعر مائة وعشرين ، وهو يعلم أنها تساوي مائة ، فيبيعها بمائة ، وهذا التوَرُّق بيع عينة من ثلاثة أطراف ، فالتعامل بالتقسيط بدون ضوابط شرعية يوقع الناس في الربا كثيراً بنوع من التحايل ، فالتقسيط نفسه جائز ولكن بضوابطه الشرعية .

فما يتم في المعارض مثلاً من أنهم يأتون بسلع لا يملكونها ، ولا يشترونها ، ولكن يقولون : (نحن سندفع لك ثمن السلعة التي تريدها ، اشترِ أنت ما تريد وسنقوم بالسداد عنك ، وسدّد لنا أنت بعد ذلك) ، فهذا الوسيط لا يمتلك السلعة ، ولكنه يبيعها قبل تملكها وقبضها ، والواجب أن يستلم السلعة وتقع

في ضمانه ، ثم يبيعها بعد ذلك وله الحق في أن يربح ، لأن الرسول ﷺ « **نَهَى عَنْ رِبْحِ مَا لَمْ يُضْمَنْ** »[1] ، فأما أن يقول له : (اشْترِ ما تريد ، وأنا أسدد لك الثمن الآن ، وأنت تسدده لي بعد ذلك) ، فهذا هو القرْض الذي جَرَّ نفْعاً بلا شك ، وما دام هذا الوسيط لم يَحُزْ السلعة ولم يمتلكها في يده ولم يقبضها فلا يجوز له أن يربح فيها ، وهذا نوع من التحايل على ما حرم الله ﷻ .

لذلك نقول : يجب الحذر من التحايل على الشرع ، خصوصًا في باب الربا ، فإنه من أخطر الأبواب التي يقع فيها كثير من الناس بالتحايل على شرع الله ﷻ كما فعل اليهود في هذه القصة .

ومن الحِيَل المنتشرة نكاح التحليل ، عندما يُطَلِّق رجلٌ امرأته ثلاثا ثم يتفق مع رجلٍ على أن يتزوجها - سواء وطأها أم لا - ليحلَّها له ، ثم يطلقها بعد يوم أو يومين ، يزعم بذلك أنه

(١) رواه النسائي (٤٦٢٩) ، والترمذي (١٢٣٤) ، وأبو داود (٣٥٠٤) ، وأحمد (٦٦٧١) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٤٤) .

يحلها للأول ، وهذا الرجل الثاني يسمّى في الشرع الإسلامي : (**التيّس المستعار**) ، كما قال ﷺ : « **لَعَنَ اللهُ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ** » (1) ، فهذا من التحايل على شرع الله ، بل ذلك يبطل العقد الثاني ولا يحلها للزوج الأول .

فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله :

بدأ الأمر كما ذكرنا بأنهم صاروا يعتدون في السبت بهذه الطريقة ، وهي أنهم ينصبون الشباك يوم الجمعة ، ويأخذون السمك يوم الأحد ، وقيل إنهم حفروا حُفَراً يقع فيها السمك عندما يمد البحر - أي في فترة المدّ - ثم إذا جاء الجَزْر عجز السمك عن الخروج من الحُفَر ، فيتناولونه يوم الأحد ، فالله أعلم ، لكنهم كانوا يتحايلون بطريقة معينة على عدم الصيد يوم السبت .

---

(1) رواه أبو داود (٢٠٧٦) ، والنسائي (٣٤١٦) ، والترمذي (١١٢٠) ، وابن ماجة (١٩٣٦) ، وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجة (١٥٧٢) .

هنا انقسم المجتمع في هذه القرية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قوم معتدون يفعلون هذه الحيلة المحرمة .

القسم الثاني : قوم آخرون رفضوا ذلك وأبوا ، وهم قوم صالحون نهُوا المسيئين عن ذلك ودعوا إلى الله ﷻ وشرعوا ينهونهم عن الاعتداء في السبت .

القسم الثالث : أمةٌ (قومٌ) سكتوا عن الدعوة ، وليس هذا فقط ، بل شرعت تيئس الدعاة ، قال ﷻ : ﴿ **وَإِذ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ، فهذه الطائفة قالت للدعاة إلى الله نحوَ ما نسمع اليوم : (لا فائدة !!) ، (لا تتعبوا أنفسكم !!) ، (هل أنتم الذين تصلحون الكون ؟!) ، (الفساد مستمر !!) ، (لن تأتي الدعوة ثمرتها !!) .

وهذا الصنف نوع من الناس لا يريد المشاركة الإيجابية في تغيير الشر والفساد ، فهو يعلم الخير من الشر ، ويشعر بالتأنيب من نفسه اللوامة لأنه مُقَصِّر ، ويَوَد لو أن الناس كلهم مقصرون ، ولذلك يقول لغيره : (دَع عنك إتعاب نفسك ،

ودَع عنك ما تبذل من دعوة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإنه لا فائدة) !!

وهذا منه تبريرٌ لموقفه السَّلبي في ثوب نصيحة ، ولا شك أن هذا جهل كبير منهم بفوائد الدعوة إلى الله تعالى ، على الداعي نفسه ، وعلى المجتمع بصفة عامة ، فالدعوة إلى الله لها هدفان أساسيان ، ولا تخلو من فائدة طالما وُجِد هذان الهدفان وهما :

(١) **الهدف الأول** : الإعذار إلى الله ﷻ .

(٢) **الهدف الثاني** : هداية الخلق .

الهدف الأول : الإعذار إلى الله :

وهو إبلاغ الحق للناس إعذارا إلى الله ﷻ ، فإنه سوف يكون لنا عذر بين يدي الله سبحانه إذا كان المنكر يفعل فقلنا للناس إنه منكر ، واتقوا الله واتركوا هذه المنكرات ، وبلغناهم شرع الله ﷻ .

وهذا الهدف يحصل بمجرد فعل الدعوة ، وبمجرد إبلاغ الحق للناس سواء استجابوا أم لم يستجيبوا ، قَبلوا الدعوة أم لم

يقبلوها ، فذلك حاصل بدون النظر إلى النتيجة ، وهذا يثاب عليه العبد بين يدي الله ﷻ في الآخرة ، ويثاب في الدنيا بمنع نزول العقاب العام ومنع تعذيب الجميع .

فتعذيب الجميع ونزول الفتن التي لا تخص الظلمة فقط إنما يقع عندما يظهر المنكر ولا يغيره أحد ، كما قال ﷺ : « **إِذَا رَأَى النَّاسُ الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ ، أَوْشَكَ اللهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابٍ** » [1] ، فالإعذار هنا معناه إظهار كراهيتنا للمنكر ، وعذرنا بين يدي الله بأننا بلغنا الحق .

والحق أنه عند التأمل في الأدلة المتعلقة بشأن وجود الطائفة المؤمنة في مجتمع تظهر فيه المنكرات يمكننا أن نلاحظ أن هناك عدة مراتب وأحوال .

المرتبة الأولى : أن تكون الدعوة ظاهرة وشعار الإسلام ظاهراً في مجتمع من المجتمعات وتكون كلمة الحق معلومة ، فعند ذلك لا يعذب الله الجميع ، بل إذا نزل عذاب نجّى الله

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٠٠٥) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٢٣٦) ، وانظر الصحيحة (٨٨) .

المؤمنين الدعاة ، كما قال الله ﷻ : ﴿ **وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، أي : وفيهم من يستغفر .

ولو أن النبي ﷺ خرج من عندهم لنزل فيهم العذاب ، وذلك يدلنا على أن وجود النبي ﷺ كان أماناً لأمته ، وهكذا ظهور الدعوة إلى الله ﷻ أمان لكل مجتمع من المجتمعات من العقاب العام ، فإذا ضاعت الدعوة ، فإن ذلك يؤذن بعذاب الجميع .

فإذا كانت لديهم قوة على التغيير باليد لم يكن الوعظ كافياً ، بل لابد من إزالة المنكر ، كما قال ﷺ : « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغيرْهُ بيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ** » [1] ، لكن إذا ترتب على التغيير باليد مفاسد معتبرة أو إيذاء معتبر له أو لأهله أو لعموم المسلمين لم يكن له ذلك .

المرتبة الثانية : أن يكون هناك من هو صالح في نفسه وعاجز

(١) رواه مسلم (٤٩) .

عن أن يبلغ كلمة الحق للناس ، لأن الناس يمنعونه ويُكرِهونه على تركها ، فهؤلاء قد يقع العذاب عليهم جميعاً ، ويبعثون على نيّاتهم ، وقد يدفع الله ﷻ العذاب عن الناس بهم ، فهو سبحانه يفعل هذا وذاك .

ولكنه ﷻ لا يعذب أمة بأسرها مع ظهور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن العذاب يحدث مع عدم الاستجابة لأمر الله ﷻ ، لكن إذا وجد من يسكت لعجزه ، مستضعف ساكت عن الحق لا يستطيع أن يقوله ولا أن يعلنه فهذا قد ورد فيه قول الله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الفتح : ٢٥] ، فالله ﷻ دفع عن أهل مكة العذاب الأليم الذي يعمُّ الجميع لوجود طائفة مستضعفة ، وإن لم تكن تدعو إلى الحق وتظهره من أجل عجزها .

ووَرَد في مثل هؤلاء أيضاً عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ**

الأَرْضِ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ » ، قَالَتْ : قُلْتُ : (يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ ؟!) ، قَالَ : « **يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ** » [1] ، وفي رواية أخرى قالت أم سلمة رضي الله عنها : (إِنَّ الطَّرِيقَ تَجْمَعُ فِيهِمُ المَجْبُورَ وَالْمُسْتَبْصِرَ وَابْنَ السَّبِيلِ) ، فقال ﷺ : « **يَهْلِكُونَ مَهْلِكاً وَاحِداً ثُمَّ يَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى** » [2] .

ومن عَجَز عن الدعوة كان معذوراً ، وإن احتمل أن ينزل العذاب العام بدرجات متفاوتة ، فليس شرطاً أن يكون مستأصلاً ، بل قد يكون أنواعاً من المحن العامة ، لو قلنا مثلاً المجاعات ، وسوء الحال ، والفقر الشديد ، والأمراض المنتشرة ، والزلازل ، والأعاصير ، وهذه يمكن أن تصيب الصالح والطالح .

وهذا نوع من العذاب الذي يصيب الجميع إذا كانت هناك

---

(١) رواه البخاري (٢٠١٢) ، ومسلم (٢٨٨٣) .
(٢) رواه مسلم (٢٨٨٤) .

طائفة مستضعفة لا تستطيع أن تؤدي دورها في الدعوة إلى الله ﷻ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحيث لا تظهر شعائر الإسلام ، فربَّما عُذِّب البعض من الأبرياء ويكون ثواباً لهم عند الله ، ويكون نزول العذاب العام تكفيراً لسيئاتهم ويبعثون يوم القيامة على نياتهم ، ومن هذا قوله ﷻ : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وعن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إِذا ظَهَرَتِ المَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللهُ بعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ** » ، فقلت : يا رسولَ الله أما فيهم أناسٌ صالحون ؟! قال : « **بَلَى** » ، قلتُ : فكيفَ يصنعُ أولئك ؟! فقال : « **يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ** » [1] .

ويؤيد هذا حديث زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ : أنَّ

---

(١) رواه أحمد (٢٦٦٣٨) ، وله شاهد من حديث أم سلمة مرفوعاً صححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠) ، وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٧) .

النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ : « **لا إِلَهَ إِلا اللهَ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ** » ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا ، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها : فَقُلْتُ : (يَا رَسُولَ الله ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟!!) ، قَالَ : « **نعَمْ ، إِذا كَثُرَ الْخَبَثُ** » [(١)] .

وهذا الحديث يوضح الحالة التي نزل بها العذاب العام ، مع وجود الصالحين وهي كثرة الخَبَث ، والخَبَث هو الفسق والفجور ، وقيل الزِّنى خاصةً ، قال النووي - رحمه الله - : (والظَّاهر أنه المعاصي مُطلقاً) [(٢)] ، ويلاحظ أنه لا يكون الإنسان صالحاً إلا وهو يؤدي الواجب عليه ، ولو كان قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدرجة من الدرجات ولم يقم به لم يكن صالحاً .

المرتبة الثالثة : أن يوجد من يقدرون على الدعوة والتغيير فلا يفعلون ، أو يقدرون على الوعظ فيسكتون ، ولا ينتقلون

(١) رواه البخاري (١٥٧ ، ٧٠٥٩) ، ومسلم (٢٨٨٠) .
(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١٨/ ٢٨٨٠/ ٣) .

عن مكان المنكر ، فيكونون مستحقين للعذاب لتقصيرهم كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بهَا وَيُسْتَهزَأ بهَا فَلا تقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إنَّكُمْ إذا مِثلُهُمْ إنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

فمن سمع آيات الله يُكْفَر بها ويُسْتَهْزَأ بها ، وهو قادر على أن يُغَيِّرَ ، ولم يُغَيِّرْ ولم ينتقل ، فهو آثمٌ بسُكوته ، وبه يُبدَأُ إذا نزل العذاب العام ، كما في بعض الآثار أن قرية أمر الله بهلاكها ، فقالت الملائكة : (يَا رَبِّ ، إنَّ فِيهِمْ عَبْدَكَ فُلانًا) ، فقال الله تعالى : (بهِ فَابْدَؤُوا فإنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ) أي لم يتغير وجهه عند رؤية المنكر ، ولذلك فإنَّ من جلس على مائدة تُدار عليها الخمر ملعونٌ مثل من يشربها - والعياذ بالله - وذلك أنه مشارك لهم وهم يشربون ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةً ؛ عَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةُ إلَيْهِ ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ،

وَآكِلَ ثَمَنِهَا ، وَالْمُشْتَرِي لَهَا ، وَالْمُشْتَرَاةُ لَهُ) [1] .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ** » [2] ، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً ، وَإِنْ أَخَذوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً** » [3] .

وهذه الأحاديث تختلف عن الأحاديث التي ذكرناها في **المرتبة الثانية** ، وذلك أن الساكتين هنا مُقَصِّرون آثمون ،

---

(1) رواه الترمذي (١٢٩٥) ، وابن ماجة (٣٣٨١) ، وصححه الألباني .

(2) رواه الترمذي (٢١٦٩) ، وأحمد (٢٣٣٤٩) واللفظ له ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠) .

(3) رواه البخاري (٢٣٦١) .

مُستحقون للعقاب في الدنيا والآخرة ، وذلك لأنهم غير صالحين ، لعدم قيامهم بالواجب ، كما قال سعيد بن المسيّب رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، قال : (إذا أَمَرْتَ بالمعروف ونَهَيْتَ عن المنكَر فلا يَضُرُّكَ من ضَلَّ إذا اهتديتَ) ، وروي ذلك عن حذيفة وغير واحد من السلف .

ومن هنا يظهر لنا أهمية الدعوة إلى الله في تحقيق الهدف الأول وهو الإعذار إلى الله ، وثمرته منع العقاب العام والفتنة الشاملة ، وهذا الهدف يتم تحقيقه إذا بَلَغ الحق للناس وظهر شعار الدين بين الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ومن أجل تحصيل هذه الغاية تجوز أو تُستحب أو تجب الإقامة بين ظهراني الكفار والظلمة والفَسَقَة ، كما أقام الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في ديار الكفر ووسط الكفار للقيام بواجب الإبلاغ ، وبقي رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة والأصنام حول الكعبة يراها صباحاً ومساءً في بيت الله

الحرام صابراً محتسباً لكي يُبَلِّغ الحق لجميع الناس ، والأمة مُكلَّفة بالقيام بهذا الواجب بالنيابة عن رسول الله ﷺ كما قال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً »[1] .

الهدف الثاني : هداية الخلق :

من أهداف الدعوة احتمال استجابة البعض ، فقد قالوا أولاً : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ ، وثانياً : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ، فجزموا بالمعذرة ، وتمنَّوا أو رَجَوا التقوى .

فالنتيجة التي نتمناها ونرجوها هي التقوى ، وجزموا بالمعذرة ، ولم يقولوا : (لعلَّه معذرة وليتقوا) ، بل قالوا : ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ أي ندعو إلى الله معذرةً ، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ، وذلك أن نتيجة الدعوة إلى الله ليست بيَد الداعي ، فهل يجزم أحدٌ بأن المدعو سوف يستجيب أو يهتدي ؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، فهؤلاء الدعاة رجوا أن يهدي الله طائفة منهم لعلهم يتقون مع تكرار الوعظ .

(١) رواه البخاري (٣٢٧٤) .

فالداعي إلى الله ﷻ من شفقته وحبِّه للخير يحب للناس الهداية أولاً ، ولا يريد بدعوته أن يعذبوا أو يهلكوا ، فالرسول ﷺ لم يُرَبِّ الصحابة على ذلك قط ، بل يقول لعلي ﷺ - وقد أخبره أن خيبر ستفتح على يديه ، وخيبر من أغنى حصون اليهود الذين معهم من الأموال ما معهم - يقول له : « **أُنفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ ، ثمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** »[1] .

ولذلك يقول العلماء أن من ضمن فوائد الدعوة ونفعها الأثر العاجل المباشر أن يستجيب المدعو مباشرة ، كأن تقول له : (اتق الله ، قم فَصَلِّ) ، فيطيع ويقوم ويصلي ، وتقول للمرأة : (اتقي الله والبَسي الحجاب الشرعي) ، فتفعل .

وهذا الأثر هو المحبوب المرجو لدى الداعية ، أن يستجيب المدعو إلى الله تعالى مباشرة ، ويتوب إلى الله ﷻ من معصيته

---

(١) رواه البخاري (٢٧٨٣) ، ومسلم (٢٤٠٦) ، وحُمْر النَّعَم هي الإبل الحمراء .

وينجو من عذاب الله ﷻ قبل أن يهلك بإصراره على معصيته .

وهذا ولا شك قليل إلا أنه موجود ، فقليل من يُشْبه أبا بكر الصِّدِّيق في سرعة استجابته للحق ، فعندما عرض عليه النبي ﷺ الإسلام لم يتردد لحظة ، وَقَبلَه مباشرةً ، والصحابة بعد ذلك تأدبوا بهذا الأدب ، تعلموه فكانوا وَقَّافِين وَرَجَّاعِين عند كتاب الله ﷻ .

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن ، إذا ذُكِّر تَذَكَّر ، وهذه علامة على حياة القلب وصحته ، ذلك لأن الإنسان ذا القلب الحي لا يخلو من معصية ، لكنه إذا ذكِّرَ تذكَّرَ وأناب ، ورجع إلى الله سبحانه وتعالى ، قال ﷺ : « **مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا وَلَهُ ذنبٌ يَعْتَادُهُ الفَيْنَةَ بَعْدَ الفَيْنَةِ ، أَوْ ذنبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا ، إِنَّ المُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنَاً تَوَّابَاً نَسِيَّاً ، إِذا ذكِّرَ ذكَرَ** » [1] .

---

(١) رواه عبد بن حميد في مسنده (٦٧٤) ، والطبراني في الأوسط (٥٨٨٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٣٥) ، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧٦) .

وكذلك الأثر الآجل للدعوة إلى الله تعالى ، وهو داخل أيضا في قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ ، وذلك لأن الدعوة إلى الله تؤدي إلى ما يسميه العلماء (**إحداث نكاية**) في القلب الفاجر والعاصي ، وربما يؤثر ذلك في الكافر بتكرار الأمر والنهي ، بأن يرتكب المنكر وهو غير مطمئن إليه لتكرير التذكير : (أنت على مُنكَر ، أنت على حرام) ، فيحدث نكاية فوق نكاية في قلبه ، إلى أن يَمُنَّ الله تعالى عليه في الوقت الذي يشاء ﷻ فيهتدي ويترك المنكر .

فتقول لمن لا يصلي : (قم فصلِّ) ، فيقول : (الله يهديني) ، وعندما يكبَرُ ويعقِلُ فإنه يصلي فعلاً ، وتقول للمرأة : (ارتدي الحجاب ، فهو فرض) ، فتقول : (إن شاء الله عندما أتزوج) ، وعندما تعقِل فإنها تتحجب بالفعل .

وهذا أمر مشهود ، وكثير جدًا من الناس من ينصح مرات ، ثم في المرة بعد المائة يلتزم ويهتدي ، ومنذ ثلاثين عاماً تقريباً لم تكن هناك امرأة واحدة ترتدي الزي الشرعي إلا نادرًا جدًا ، ثم بدأت الصحوة الإسلامية منذ ثلاثين عاماً ، وكانت

الملابس القصيرة آنذاك عادية جدًا ، وفي الريف والمدينة لم تكن امرأة تغطي شعرها ، ثم بدأ الحجاب يظهر ، والآن من هُنَّ في سن الأربعين أو الخامسة والأربعين لا تكاد توجد من تكشف عن شعرها في هذه السن - إلا القليل جداً - وكن من قبل متبرجات ، وسمعن أن الحجاب واجب ، وأن المرأة لابد أن ترتديَه ، وبعد سنين عندما منَّ اللهُ عليهن بالهداية استجبْنَ .

فالهداية من عند الله ، ونحن لا نعلم متى يستجيب المدعوُّ ، لكنه على الأقل سيتأثر قلبه ويعلم أنه مخطئ ، هذه ثمرة من ثمرات الدعوة لكنها ثمرة خفيّة لا تظهر في الحال ، ويرجى بإذن الله أن تثمر في المستقبل .

فالإنسان الذي يشعر أنه مخطئ أفضل بلا شك من الذي يرى نفسه على صواب ، فالأول قلبه متغير نحو هذا المنكر ، فلا يقر المنكر بل يقول : (أنا على خطأ) ، والثاني هو الأخطر والأشد جُرماً الذي قَلَبَ المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فأصبح ما يفعله هو الصواب وما تقوله له أنت هو الخطأ ، ولذلك يريد أعداء الإسلام أن يفعل الناس المنكر ، وليس هذا

فقط بل يفعلونه ويَرَونه صواباً .

فالذي يأكل الربا وهو يعلم أنه مخطئ خير من الذي يأكله ولا يرى به بأساً ، والمتبرجة التي تعلم خطأها خير من التي تقول : (هذه حرية ، وهذا الذي ينبغي أن يكون ، والناس كلها تتقدم وأنتم تتخلفون) ، هذا من الممكن أن يوصلها إلى الكفر والعياذ بالله ، بل هذا فعلاً من الكفر ، إذا كانت قد بلغتها الحجة ، واعتقاد القلب وعمله وانقياده من أعظم أركان الإيمان ، فإحداث النكاية في قلب العاصي أثر من آثار الدعوة ، وهو يحافظ على قول القلب وعمله وإن كان ضعيفاً لا يستطيع التأثير في الجوارح .

فإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي ، وبالتحديد في تاريخ الصحابة ﷺ ، نجد خالد بن الوليد مثلاً أسلم بعد عشرين سنة ، كان خلالها يحارب الإسلام ، وكذلك عمرو بن العاص أسلم بعد صلح الحديبية ، وغيرهما كثير .

فبقاء الدعاة إلى الله في مثل تلك القرية يكون لأحد الهدفين : الأول : أن يُبَلِّغَ الدعاةُ الدعوةَ إلى من لم تبلغه ، الثاني : استجابة

قلوب البعض كلياً وبسرعة أو جزئياً ولو بعد مدة .

والذي يجعل الصغير والكبير يفعل المنكرات ، أنه يجد في كل الناس منكراً منتشراً بشكل عادي ، فلو أن كل من شتم أو سب أو قذف وجد من يقول له : (اتق الله ، هذا حرام) ، لن ينشأ الصغير متعوداً على سب الدين أو سب الأم والأب واستعمال ألفاظ القذف والاتهام بالزنى والفواحش ، وكل منها يستوجب حداً ، وربما يرتكب الواحد منهم عدة جرائم كبرى في لحظة واحدة مما يستوجب عدداً من الحدود ، فإذا وجد من يقول : (اتقوا الله) ، لن يكون الأمر بسيطاً وطَبْعِياً عند الناس ولن يهون في نظرهم .

فمثلاً لا يوجد في مجتمعنا اليوم شاب يُقَبِّل فتاة في الطريق ، ولكن قد يحدث في بعض الأماكن الأخرى ، فلو لم يُنكِر الناس على من يفعل ذلك فسنجد بعد عدة أعوام رجالاً يُقَبلون نساءً في الطُّرُقات ، أما لو قلنا لهم : (اتقوا الله هذا حرام) ، فإنهم سيخجلون ، أما سكوتنا فهو الحياء المذموم والخجل غير الشرعي .

فأين الساكتون ؟!

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نسُوا مَا ذكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** ﴾ ، عندما تركوا ما ذكِّروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء ، فذكر ربنا نجاة الدعاة إلى الله من العذاب العام بسبب دعوتهم ، ﴿ **وَأَخَذنا الَّذِينَ ظَلَمُوا بعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ ، يبين سبحانه أن الظلمة عذبوا عذاباً شديداً بفسقهم .

أين الذين قالوا : ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** ﴾ ؟! قد سكت عنهم القرآن كما سكتوا عن الدعوة ، سكت الله عن الساكتين عن الحق ، ولذلك اختلف العلماء فيهم ، فمنهم من قال : نجوا لأنهم كرهوا المنْكَر ، فمن كَرِه المنكَر وعرف أنه مُنكَر فهذه أول خطوات النجاة ، وهذا مرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رجع عن القول بهلاكهم .

قال حمّاد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية ، قال : (مَا أَدْرِي أَنجَا الَّذِينَ قَالُوا ﴿ **لِمَ تَعِظُونَ**

قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا ﴾ ، أَمْ لا ؟) ، قال عكرمة : (فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَّفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فَكَسَانِي حُلَّةً) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : (ولكن رجوعه – أي ابن عباس – إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا) ، يعني قوله الآخر بهلاكهم ، لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَخَذنا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ ، فيه دلالة على أن الذين بقوا نجوا .

وواضح أن حكم الساكتين مما يفهم من الآية وليس صريحاً ، لذلك فالاحتمال وارد أن يكونوا من الطائفة الهالكة لتركهم الواجب عليهم ، ويحتمل أنهم نجوا بكراهيتهم المنكر والله أعلم .

وابن عباس كان يبكي ﷺ عند سماع هذه الآية وتلاوتها ، وهذا من تطبيق الصحابة للقرآن عمليًا على واقعهم ، قال ابن عباس : (رَأَيْنَا أَشْيَاءَ وَسَكَتْنَا) ، فلنا أن نتخيل المنكرات أيام ابن عباس ماذا كان نوعها لكي يبكي ابن عباس ؟!

ولما أشار إليه عكرمة بأنهم ربما يكونون قد نجوا لأنهم

كرهوا المنكر كَساه ثوبين ، ذلك أن الأمر المختلف فيه غير الذي نص عليه القرآن ، فنحن نحلف بالله أنه من دعا إلى الله من هذه الطائفة نجا ، قال تعالى : ﴿ **أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** ﴾ ، ولا نستطيع أن نحلف ولا أن نجزم بشأن الطائفة الساكتة ، ولذلك من أراد أن ينجو ، فليدخل في ضمان النجاة بإذن الله ﷻ .

كونوا قردة خاسئين

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ .

لما رأت الطائفة الواعظة عدم الاستجابة من الطائفة المعتدية في السبت رحلوا ، وهذه كانت بداية النجاة لهم وبنوا سوراً بينهم وبين أهل المعصية كما ذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما .

كيف كانت نجاة الدعاة إلى الله ؟! انعزلوا بعد أن أكملوا إبلاغ الحق إلى الناس ، وانعدمت الاستجابة ، ولا يرجى أن

يستجيب أحد ، لأن العتاة صاروا يقابلون الدعوة بالإباء والإعراض والتَّولي عن الذِّكْر ، فالدعوة استنفدت كل أهدافها ، فلابد من الرحيل إلى مكان آخر نستطيع أن نعبد الله فيه .

كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بغيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر : ١٠] ، وقال : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [العنكبوت : ٥٦] .

فالله ﷻ أمرنا أن نعبده في مكانٍ من الأرض ، فلو لم توجد فائدة من الدعوة إطلاقاً فلا يجوز أن نبقى في هذه البلدة التي تنتشر فيها المنكرات ، كما قال الإمام مالك بن أنس : (لا يَحِلُّ لأحدٍ أن يَبقَى في بلدةٍ يُسَبُّ فيها السَّلف) ، فإذا كان الرّب يُسَب والدِّين يُسَب - والعياذ بالله - وكنت ستبقى للدعوة إلى الله والإعذار إلى الله ولكي يستجيب أحدٌ من أبناء المسلمين للحق ، أو تستنقذ مسلماً من هَلَكَة فلْتُقِمْ ، أما أن تبقى لمجرد

الأكل والشرب ، ولمجرد تحصيل الأموال ، فلا يجوز أن تبقى في مكان ينتشر فيه المنكر من أجل أغراض دنيوية .

فهذه الطائفة المُعَذَّبَة ﴿ عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ فبعد أن كانوا يتحايلون ، استمروا في الإجرام أكثر فشرعوا يصطادون يوم السبت مباشرة ، ويعتدون في السبت مباشرة .

وفي يوم من الأيام أمر الله ﷻ هذا الأمر الذي ذكره ﷻ : ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ، أَمْرُ تَكْوِين ، أَمَرَ الله ﷻ بكُنْ ، فكانوا قِرَدَة أذلاء خاسئين ، مُسِخُوا قِرَدَة والعياذ بالله .

وأراد الصالحون بعد ذلك أن يعرفوا ماذا فعل أصحابهم ، فتسلقوا السور ، أو فتحوا بينهم باباً ، فلم يجدوا في القرية أحداً ، ووجدوا قردة تتعاوى ، فنزلوا ينظرون ما الشأن ، فلم يجدوا أحداً منهم وكان القرد يعرف قريبه وجاره ، ولا يعرفه ذلك القريب ، فيأتيه ويشمه ويربت عليه فيقول : (ألم أكن أنهاك ؟!) فيشير أنْ نعم ، ويبكي ولا يستطيع أن يتكلم والعياذ بالله .

وقيل مُسِخَ شبابهم قِرَدَة وشيوخهم خنازير ، وذلك أن الله

ذكر مسخ الخنازير أيضاً ، والخنزير أقبح ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ أنبئُكُمْ بشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبيلِ** ﴾ [المائدة : ٦٠] .

وهذا المسخ سيقع في هذه الأمة مثلُه عندما تشرب الخمور وتُضرَب المعازف على الرؤوس ، كما قال النبي ﷺ : « **لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بسَارِحَةٍ لَهُمْ ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الْفَقِيرَ - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُون ارْجِعْ إِلَيْنَا غَداً ، فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ وَيَضَعُ الْعَلَمَ ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** »[1] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يُمْسَخُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ** » ، قيل : (يا رسولَ الله ، ويَشهدون ألا إله إلا اللهُ وأنك رسولُ الله ويصومون ؟!!) ، قال : « **نعَم** » ، قيل : (فما بالهم ؟!!) ، قال : « **يَتَّخِذونَ المَعَازِفَ وَالقَيْنَاتِ وَالدُّفُوف وَيَشْرَبُونَ**

(١) رواه البخاري (٥٢٦٨) .

الأَشْرِبَةَ ، فَبَاتُوا عَلَى شَرَابِهِمْ وَلَهْوِهِمْ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ »[1] ، وعن أبي مالك الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بغَيْرِ اسْمِهَا ، يُضْرَبُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالدُّفُوفِ وَالمُغَنِّيَاتِ ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ »[2] ، مع أن هذه المعاصي قد انتشرت والعياذ بالله .

وهناك نوع آخر من المسخ ، وهو نوع أخطر من المسخ الظاهر ، وهو مسخ الباطن - والعياذ بالله - وهو أن يصير الإنسان عبداً لغير الله ، أن يعبد الإنسان الطاغوت ، كما قال ﷻ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

فعبْد الطاغوت شر الأنواع الثلاثة ، لأنه بدأ بالقردة ثم ثنّى

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٠٢٠) ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٢٤٧) ، وانظر الصحيحة (١٣٨) .

(٢) رواه ابن ماجة (٤٠٢٠) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥٤) ، وانظر الصحيحة (١٣٨، ١٣٩) .

بالخنازير ثم ثلَّث بعَبَدَة الطاغوت ، فالقرد خير من الخنزير ، فالقرد أشبه بالإنسان ، والقرد يغار على أنثاه ، قال عمرو بن ميمون - أحد ثِقاة التابعين - : (رأيتُ في الجاهليةِ قِرداً شاباً وقِرْدة شابَّة ، والقردة الشابَّة معها قِرد عَجوز ، فأشار القرد الشَّاب للقِرْدة وكانت واضعة يدها تحت رأس العجوز ، فنَيَّمَتْه وسلَّتْ يدَها من تحت رأسه وذهبت مع القرد الشاب) ، قال : (فوقع عليها - زَنَى بها - وأنا أنظر ، ثم رَجَعَتْ فوضعت يدها تحت رأس القرد العجوز - زوجها - فانتبه فشمها فصاح ، فاجتمعت القرود ، فأُتِيَ بالقردين الزانيين فرَجَمَتْهم القرود حَتَّى مَاتا) [1] .

فالقرد يغار والخنزير لا يغار على أنثاه ، القرد يجوز بيعه إذا كان منه منفعة لحفظ المتاع مثلاً ، والخنزير لا يجوز بيعه بحال ، والقرد طاهر العين في الحياة ، والخنزير نجس دائماً .

والأسوأ من هذين عبد الطاغوت ، وهم كثيرون جداً ، لكن شَكْلَهم شكل بَشر ، يرتدون الحلل ، وتعظِّمهم الناس ،

---

(١) رواه البخاري مختصرا (٣٦٣٦) .

ولكنهم عبيد الشيطان وجنده من الكفار المشركين واليهود والنصارى وعبيد المنافقين ، ينفذّون كل مخططاتهم في الكفر والضلال ، ويقولون : هي أوامر علينا ، والذي يعرف أن هذا كفر وضلال وحرب للإسلام ومع ذلك ينفذه فهو عبْد الطاغوت ، عبد الشيطان ، وهؤلاء شر الثلاثة ، مُسِخَتْ قلوبهم وبواطنهم ، فهذا الذي ذكر الله من مسخهم ، ثم ماتوا بعد ذلك .

قال ﷻ : ﴿ **قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾ ، أي أذلاّء ، وفي الحديث الصحيح : « **إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نسلاً وَلا عَقِباً وَقَدْ كَانَتْ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ** »[1] فبعد أن مُسِخوا ماتوا ولم يتناسلوا ، فيقال لليهود : إنهم إخوان القردة والخنازير ، وليسوا أبناء القردة والخنازير ، لأنهم ليسوا أبناءهم ، لكنهم أشباههم وإخوانهم في صفاتهم وأفعالهم .

هذه بعض فوائد هذه القصة العظيمة ، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما فيها من موعظة ، وأن يوفقنا للعمل بطاعته والأمر

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣) .

بالمعروف والنهي عن المنكر وأن ينجينا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن .



فهرس